

حلف الناتو بعد التمديد: ذراع 'سياسي وعسكري' لواشنطن

03-4-2004

وبالتأكيد، فإن أعضاء الناتو الرئيسيون مثل فرنسا وألمانيا لا يوافقون على هذا التغيير في مسار الأحداث، لكنهم لا يملكون النفوذ الكافي لإيقافه. وكل الدماء الجديدة، يمكنها أن تتجمع بأمان في "أوروبا الجديدة" التي تحدث وزير الدفاع الأمريكي دونالد رمسفلد أثناء الحرب على العراق، إذ إن هذه الدول جميعا تتقاسم الاشتراك في التجربة التاريخية سواء ما تعلق بـ"خيانة" فرنسا أو "هيمنة" ألمانيا وروسيا.

مواد ذات علاقة

[البلطيق: بعمق الخلاف بين الاتحاد الأوروبي وروسيا](#)

يرى المراقبون في انضمام سبعة دول أعضاء جدد إلى الناتو، ضمانة في أن الحلف سيعمل في المستقبل كذراع "محل ثقة" للسياسة الأمريكية. في قمة واشنطن في 1999، رحبت منظمة حلف الشمال الأطلسي بأعضائها الجدد في مرحلة ما بعد عهد الحرب الباردة: جمهورية التشيك، المجر وبولندا. وهو ما أغضب موسكو، حيث رفضت فكرة التوسع، وأدى هذا إلى فتور العلاقات بين الغرب وروسيا لمدة ثلاث سنوات. بمجرد أن تلاشى ضجيج القمة، كانت هناك بعض الأسئلة المحرجة والحاسمة التي كان يجب على مؤيدي الناتو أن يواجهوها. لقد شكل الحلف للدفاع عن أوروبا ضد الاتحاد السوفيتي، لكن بعد زوال "التهديد" السوفيتي، ما مبرر قيامه؟ وكانت الإجابة من الأعضاء الجدد بسيطة: السوفييت = روسيا. كما كانت الإجابة من الروس بسيطة أيضا: حل الناتو. بينما رأى الآخرون أن الناتو ينبغي أن يأخذ أدوار جديدة: منتدى سياسي، قوة حفظ السلام وملحق عسكري للاتحاد الأوروبي.

بعد خمس سنوات - 15 سنة بعد أن سقط حائط برلين - أصبحنا أمام عالم مختلف و"ناتو" مختلف أيضا. في 29 مارس 2004م، اعترف الناتو بثلاث دول كانت تدور في فلك الاتحاد السوفيتي سابقا (بلغاريا، رومانيا وسلوفاكيا) وثلاث جمهوريات سوفيتية سابقة (أستونيا، لاتفيا وليتوانيا)، وأيضا قطعة من يوغسلافيا السابقة (سلوفانيا). لكن مهمة هذا التمدد ستتجاوز مجرد إضافة 50 مليون شخص وتأمين حدود الناتو الشرقية.. وفي الغالب، فإن حيرة سنة 1999 قد ولت، إذ بالتمدد الذي شهده عام 2004، فإن الحلف يدرك بالضبط هويته، حتى وإن كان بعض الأعضاء غير سعداء بالنتيجة، إن الناتو ببساطة أداة الغرب (وتحديدا الولايات المتحدة) في النفوذ العالمي.

وبالتأكيد، فإن أعضاء الناتو الرئيسيون مثل فرنسا وألمانيا لا يوافقون على هذا التغيير في مسار الأحداث، لكنهم لا يملكون النفوذ الكافي لإيقافه. وكل الدماء الجديدة، يمكنها أن تتجمع بأمان في "أوروبا الجديدة" التي تحدث وزير الدفاع الأمريكي دونالد رمسفلد أثناء الحرب على العراق، إذ إن هذه الدول جميعا تتقاسم الاشتراك في التجربة التاريخية سواء ما تعلق بـ"خيانة" فرنسا أو "هيمنة" ألمانيا وروسيا.

من أستونيا إلى بلغاريا، فإن لواشنطن الآن 10 دول جديدة أعضاء في الناتو، يمكن الاعتماد على

دعمها (السياسي والعسكري) في المستقبل، وحرب العراق 2003 مثال نموذجي، حيث قادت بلغاريا تقريبا حملة دعم في أروقة الأمم المتحدة لصالح أمريكا.

قد لا تسعد روسيا قد بهذا التطور، لكنها بالتأكيد مرتاحة من حيث أن عيون الناتو غير مسمرة فقط على الشرق. وبالرغم من أن النفوذ الأمريكي داخل التحالف أقوى من أي وقت مضى، فإن قوات الناتو في أوروبا أضعف أكثر من أي وقت سابق ومرشحة للتخفيض أكثر. فألمانيا قد خفضت قواتها العسكرية إلى مستوى محدود جدا، هذا في الوقت الذي تناقش فيه الولايات المتحدة علانية خططاً لنقل قواتها خارج القواعد عبر أوروبا. والجبهة الداخلية الناتو لم تعد آمنة، والبقعة الوحيدة في القارة الأوربية التي تتطلب وجود القوات هي البلقان، لكنها تبقى محدودة مقارنة بمهام الناتو في الماضي. وستشكل أماكن مثل كوسوفو صداعاً لفترة غير قصيرة، لكن مثل هذه "الحرائق" لا يتوقع أن تهدد قلب الناتو، أو حتى الأعضاء الجدد. وقد غير هذا من طبيعة الناتو، من تحالف عسكري دفاعي (أو حتى هجومي) إلى أداة للتأثير العالمي.

أمام هذه التحولات، يبدو وضع روسيا الاستراتيجي بائساً. كل أتباعها السابقين (إضافة إلى ثلاثة دول من جمهورياتها السابقة) دخلت في تحالف مع سياسة الهجوم النووي الاستباقي، التي رُسمت لمواجهة الجيش الأحمر. ولم يبق من حلفائها محل الثقة إلا روسيا البيضاء المغمورة وأرمينيا النافهة عسكرياً. ويبقى السؤال المحير المطروح على مستوى كبار المسؤولين في الحكومة الروسية: كيف يمكن إيقاف نزيف التدهور العسكري؟، وقد شجع أو بالأحرى هبأ هذا "الضعف" الأرضية لإتاحة "الفرص" لبروز قوى أكثر "عدوانية" في البيئة الجغرافية السياسية الروسية من الناتو:

* أوزبكستان تأمل في أن تصبح "مهيمناً" إقليمياً وستستغل مساندةها الأمريكية غير مباشرة لمد نفوذها في شرق آسيا الوسطى، خاصة في مواجهة حلفاء روسيا: قيرغستان وطاجكستان.
* الجماعات الإسلامية المسلحة ستعمق حضورها في جنوبي الاتحاد السوفيتي السابق، خاصة في القوقاز.

* الصين ستستمر في تشجيع مواطنيها أن يسكنوا شرق سيبيريا، في الوقت الذي تعمل فيه على ربط كازاخستان (الملعب التقليدي لروسيا) اقتصادياً.

* الهند تغرس الأعلام في منطقة حوض قزوين الغني بالطاقة، خاصة في كازاخستان.

* تركيا تعمق العلاقات الاقتصادية والعسكرية والسياسية مع جورجيا وخاصة مع أذربيجان.

* يبدو أن اليابان تستحوذ على موارد سيبيريا لنفسها وتوسع مصالحها الاقتصادية في الشرق الأقصى الروسي بانتظام.

* الاتحاد الأوروبي يضغط بثقله الاقتصادي عبر عرض هامش روسيا الغربي.